

ثورة هاييتى والكفاح ضد العبودية: تحديات للمعرفة، والجهل، والصمت

ركس نتلفورد

Rex Nettleford

الاهتمام بتاريخ العبودية وتجارة العبيد:

يستجيب هذا البحث، من بين أمور أخرى، لدعوة اليونسكو للتأمل حول «تسوية الحسابات» مع تجارة العبيد والعبودية. وفى رأيى، إن أفضل طريقة لفعل ذلك هو «استخدام» حقائق التاريخ عن طريق البحث والتحليل، والتفسير الذى يستهدف تجارب معينة فى كل من الإدارة الفعلية، وتشغيل التجارة، وما ترتب عليها بالنسبة للشتات الإفريقى. وفى داخل هذا الإطار العملى، يتركز اهتمامى هنا بالتحديد على الشتات فى الأمريكتين، وبتحديد دقيق على حالة هاييتى (سانت دومينجو). وأنا أشير إلى كل من تحريرها وتأثيرها على بقية العالم المالك للعبيد، وكذا إلى ماتلا التحرير والصدمات التابعة له، حتى الأزمنة الحديثة.

إن مثل هذا البحث والتحليل يساعد على التعامل مع الجهل، ويكسر الصمت أو يشركه فى التعامل، وهو الصمت الذى حجب السيطرة المهيمنة للثقافات الاستعبادية على قواعد التمثيل، وقواعد المشاركة التى تحدد العلاقات بين السادة والعبيد التى تؤكدها الاعتبارات العنصرية. إن استمرار الإصرار على مثل هذه السيطرة بسبب القوة المساندة لمثل هذه «القواعد» يظل نتيجة أساسية للعبودية.

ولكن مقاومة هذه السيطرة، التى جاءت فى أشكال المقاومة المسلحة والتأكيد الثقافى المضاد (أنظمة المعتقدات، والدين، واللغة، وفنون الخيال الفردى والجماعى)، تنتج أنماطا بديلة للحياة، وشعورا بالذات (الوجود)، ونظرة للعالم (الكونيات)، وشعورا بالعلم (المعرفة)، وهوية عرقية. وهذه فى ذاتها نقاط للقوة تقدم قواعد بديلة للتمثيل والمشاركة فى علاقات طبيعية. وينتج عن هذا، بالطبع، المعارضة التى تظل هى القوة المحركة لوجود الشتات الإفريقى فى الأمريكتين، حيث التقت أوروبا بإفريقيا على أرض أجنبية من خلال تجارة العبيد والعبودية.

لذلك يترتب على «تصفية الحسابات» مع

ركس نتلفورد :عضو فى «اللجنة الدولية العلمية الخاصة بمشروع اليونسكو لطريق العبيد». وهو عالم كاريبى مشهور، ومثقف نقابى، وعالم تاريخ اجتماعى وثقافى، ومحلل سياسى. وهو نائب مستشار فخرى فى جامعة وست إنديز، جامايكا، وأيضا مؤسس ومدير فنى ، وواضع ألحان الرقص الرئيسى فى شركة مسرح الرقص القومى فى جامايكا المشهور دوليا. وهو محرر مجلة كاريبيان كوارترلى، ومؤلف كتب عديدة.

ترجمة: سعاد الطويل

تجارة العبيد والعبودية، من بين أمور أخرى، بجانب طريق العبيد:

- «عمل كشفى» متخصص يقوم به علماء ذوو خبرة، يصل إلى أعماق مواطن المعرفة التى ماتزال لغزا بين سلالة شعب اقتلع من جذوره من بيوت أجداده، بما فى ذلك فحص تجليات وسائل تقوية الذاكرة المستخدمة للحفاظ على بقاء التراث غير الملموس للأسلاف المقتلعين.
- دراسة الطبيعة والسمات المميزة للخطابة طالما أن التراث الشفوى يمكن أن يكون مصدرا للقصص الأدبى المكتوب.
- تركيز جهود التقصى على طقوس الأجداد مثل القودان، والشانجو، والكاندومبل، والكيومينا، وإخراج الأرواح من المنزل بقرع الطبول، أو الاحتفال بحياة متصورة كجزء من دورة متصلة بين أولئك الذين ماتوا، والذين مازلوا أحياء، أو الذين لم يولدوا بعد (فلسفة البانتو).
- تحليل الصبغة الإفريقية التى تم إضفاؤها على الشكل والشعور فى الأشكال المختلفة للموسيقى (من الجاز، وخلال الرومبا، والكامبارساس، والكاليبسو، والسامبا حتى الريجا)، بما فى ذلك دراسة موسيقية مقارنة نقدية ومفصلة، ودراسة تحليلية للمضمون (للقصائد الشعرية التعبيرية ـ العاطفية والحماسية).
- بحث فكرة حضارة إفريقية أطلسية، أو مجرد أطلسية، يتمتع فيها الوجود الإفريقى بمركزية خاصة.
- دراسة أفكار الحرية والمساواة من منظور الشتات الإفريقى فى كل الأماكن التى وجدت فيها العبودية. ويُفند هنا مفهوم العبيد كأملاك منقولة، وكذا فكرة عدم توافق المساواة مع الحرية.

ثورة هاييتى والصدمات الثقافية التى تبعتها

كل السمات السابقة واضحة فى الرواية حول ثورة هاييتى وما تلاها من صدمات منذ عام ١٨٠٤ (ثلاث سنوات قبل إلغاء تجارة العبيد بواسطة البرلمان البريطانى). إن ثورة هاييتى لم تحل مشكلة الصمت التى فرضتها تجارة العبيد والعبودية فى الأجزاء المستعبدة من العالم. بل بالأحرى، إنها «تعاملت» مع القضايا من خلال المقاومة المسلحة، وتكوين مجتمع مهجن، بمعنى أنه مواطن وُلد وتربى فى بلد الإقامة، ولكنه تشكل وهو على علم تام بالتراث الإفريقى (الملموس وغير الملموس)، وواع جدا بحق الأفراد بأن يكونوا أحرارا كجزء من الإنسانية المشتركة والعمومية.

إن دلالة وأهمية ثورة هاييتى فى التاريخ الإنسانى هى أمر لا يخضع للشك. إلا أن هذه الواقعة فى تاريخ الأطلسى الحديث ماتزال تتحدى الفكر الجماعى، والخيال الإبداعى باستمرار الحديث عن الذات والمجتمع. وإعادة التأكيد المتكرر عليهما. ويتعلق التحدى بنفس الدرجة باستخدام ذكرى تجارة العبيد عبر الأطلسى، ومستعمرات العبيد (عبيد الأرض)، وكذا الكفاح ضد تهديد الجهل والصمت من خلال بحث واع عن المعرفة. ولهذا السبب، فهو يستدعى عددا كبيرا جدا من العلماء والفنانين فى كل أنحاء منطقتنا، وفى الشتات الإفريقى، للاحتفال والتحدى من خلال الدراما، والفنون

الطقسية، والمرئية، والأغانى، والشعر، والرقص، والتحاليل والتفسيرات التاريخية، وأيضا من خلال ذلك النوع من الاستدعاء الذى وضع ثورة هاييتى فى مركز احتفال اليونسكو بعام ٢٠٠٤، وهو عيدها المئوى الثانى، باعتباره «العام الدولى للاحتفال بالذكرى».

وهذا يأتى بالطبع بعد عدة سنوات من الحوار والمناقشة حول تجارة العبيد عبر الأطلسى ونتاجها، والعبودية فى مزارع العبيد، وقد أدى هذا بدوره إلى إطلاق اليونسكو لمشروع «طريق العبيد»، المنشأ لإعادة أفق من الذكرى للوعى الإنسانى، والذى من المأمول فيه أن يمنع أى تساهل فى المستقبل فيما يكون قد اعتُرف به أخيرا على أنه جريمة ضد الإنسانية.

إن ثورة هاييتى ترجعنا إلى مناسبة من تلك المناسبات التى حملت المسؤولية الكبرى على كل من يرغبون فى الدفاع عن التحسين التدريجى لنوعية الحياة لكل من يسكنون على كوكب الأرض. ومنذ دخول بوكمان، العبد الجامايكى، إلى سانت دومينجو فى أواخر القرن الثامن عشر، حتى الدخول الأخير لهاييتى كعضو كامل الأهلية فى المجتمع الكاريبى، ارتبط الكومنولث الكاريبى كجزء من الشتات الإفريقى بذلك الجزء من تاريخ الشتات الإفريقى الذى حول سانت دومينجو، المتمردة، المحطمة للمؤسسات التقليدية، إلى هاييتى، أيقونة الكفاح من أجل الحرية والتحرر، ذلك الكفاح الأساسى لتاريخ كل من يرغبون فى الحفاظ على وحدة إنسانيتهم.

إنهم المثقفون الكاريبيون، والفنانون المبدعون، مثل إيميه سيزار، وديريك والكوت، وجورج لامينج، وس. ال. ر. جيمس، الذين تناولوا منذ فترة طويلة هذا الواقع. ويظل كتاب جيمس «الرهبان الدومينيك السود» علما قائدا فى دراسات هاييتى وتحرير العبيد، التى ركزت على طبيعة الثورة، والأدوار النسبية لمختلف الجماعات العنصرية والاجتماعية، وأدوار القوى الاستعمارية المختلفة، أو المهارات القيادية الهائلة لتوسانت لوفرتير. ولو كان، كما يؤكد الأستاذ أنتونى بوج، قد أُولى قليل من الاهتمام حتى الآن للأفكار السياسية للثورة، فقد آن الأوان، فى الحقيقة، لوضع تركيز أكبر على المساهمة الجذرية التى قدمتها الثورة بالذات، والكفاح ضد العبودية بشكل عام، لتطوير فكرة الحرية ـ وهو تطور مستقل عن الأفكار التى من أصل أوروبى ويونانى ـ رومانى. ونحن مضطرون للاعتراف بأن الإفريقيين يستطيعون التفكير كما يستطيعون الغناء والرقص.

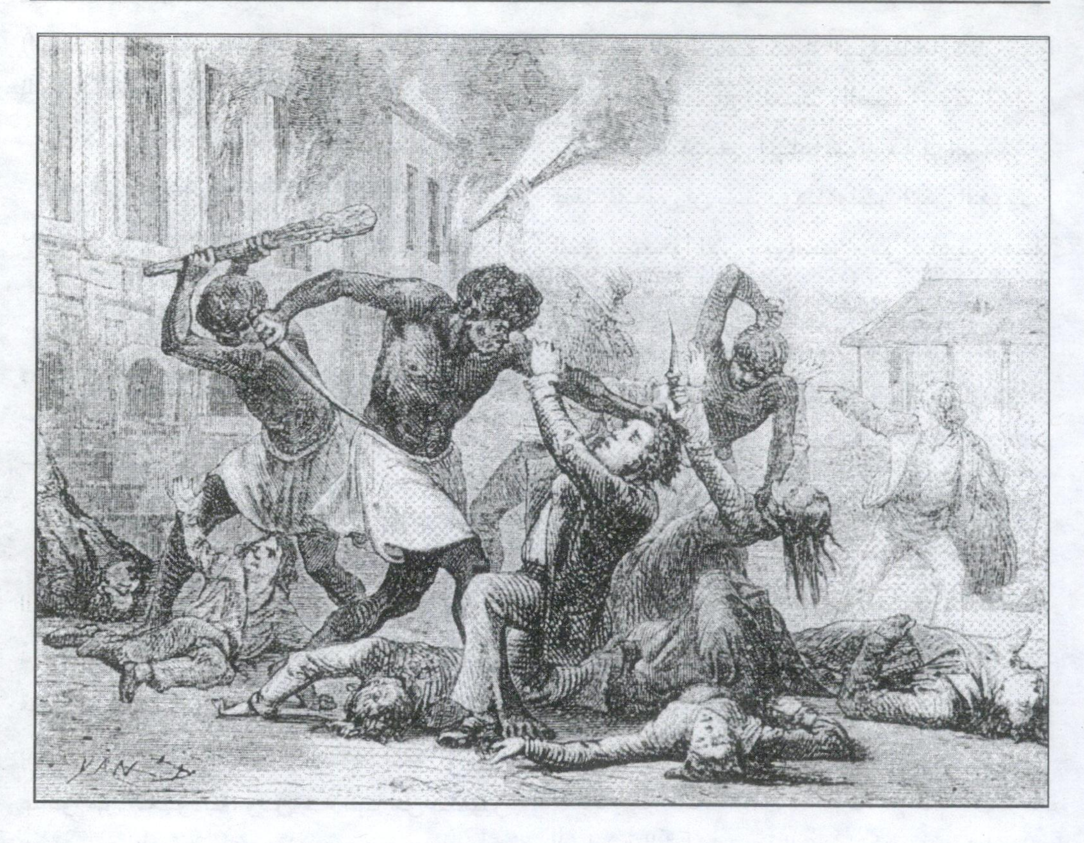
وأحداث مثل المؤتمر الذى تم تحت رعاية اليونسكو، والذى قُدم إليه هذا البحث فى الأصل، يجب أن تساهم فى الحديث الجارى حول تحرير السود، وحول قانون «اللياقة» للعبيد السابقين، وحول التناقضات والطبيعة (الفصامية) لمسائل هوية الشتات الكاريبى والإفريقى، والمسؤولية المقدسة لشعب يخطط لنفسه قصصا للتفعيل والتجسيد. وهذه يجب أن تذهب لأبعد من النماذج السائدة فكريا التى تقدمها أوروبا ـ من أول الثورة المجيدة لجون لوك، ومرورا بالثورات الأمريكية والفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر، التى تمتد جذورها إلى حقوق الإنسان، والمزدهرة مثل التنوير، حتى كارل

ماركس، الذى يمكن أن يقال: إنه اقترب كثيرا من الفهم الهايتى للروابط بين الحرية أو التحرر، والاستغلال، فى العمل المتجسد فى العبودية العنصرية، وعبودية السود.

وفى الحقيقة، إذا اقتبسنا مرة أخرى من بوج، «فإن رحلة المرء طوال حياته داخل الأكاديمية، وفى الكاريبى الأوسع، وفى العالم، تتحدث عن الاحتفال بروح توسانت، وتذكرنا بالمحاكمات والمحن فى الكفاح من أجل المساواة التى تنتظرنا». وفى هذا الكفاح المستمر تظل الصدمات الثقافية التالية فى عام ١٨٠٤ نقطة مركزية.

ويحارب «كاريكوم» الكاريبى الخاص بنا، حتى فى هذه الفترة، فى واحد من هذه الصدمات التابعة، التى سيكون اسمها بلاشك «مسألة أريستايد»، أو فى واحدة من المسائل التى ترتبط بأريستايد، إذا كان طرد ذلك القس السابق صغير الحجم، ذى الجاذبية الجماهيرية فى عام ١٩٩١، ثم عودته فى عام ١٩٩٤، ثم طرده مرة ثانية فى عام ٢٠٠٤ سيتم تسجيلها كأحداث منفصلة. وهناك فى الواقع صدمات ثقافية تابعة لذلك الحدث التاريخى الخطير فى تاريخ الإنسانية الحديث، تؤثر على كل من المنتصرين والضحايا، البيض والسود، أوروبا وإفريقيا، وكل من أولئك الذين يؤمنون بالإنسانية الشاملة لكل الآدميين، بغض النظر عن الجنس، وأولئك الذين يحصرون العضوية الشرعية فى العائلة الإنسانية فى قلة مختارة، وكذا أولئك الذين يسكنون فى ثلث العالم المزدهر، وأولئك الذين يعيشون فى الثلثين الآخرين ـ المسمى خطأ بالعالم الثالث. وكانت لجامايكا تجربة مبكرة لهذه الصدمات التابعة عندما قام حاكم إنجليزى (الحاكم آير)، كرد فعل لتمرد مورانت باى الذى قاده عبيد سابقون فى عام ١٨٦٥، بتوقيع أسوأ أمثلة لإرهاب الدولة على المتمردين، باستخدام ثورة هاييتى التى حدثت قبل ذلك بواحد وستين عاما كمبرر لأوامره بقتل المتمردين الثائرين المشكوك فيهم بمجرد رؤيتهم، وشنق اثنين من القادة ـ بول بوجل وجورج ويليام جوردون. وقد ذُكر الخوف من قتل الجزء الأكبر من السكان البيض بواسطة سلالة العبيد السود فى التحقيق الذى تلا ذلك كسبب لتلك الانتفاضة. وهذا الخوف كان يشكل السياسة البريطانية الاستعمارية على مدى عقود بعد ذلك. وفى الواقع، فإن ثورة هايتى غذت مثل هذه المخاوف خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، كما فعل الخوف من تصدير كوبا للتمرد أو للثورة الاشتراكية المتقدمة فى النصف الأخير من القرن العشرين.

وعلى ذلك، فإن الصدمات الثقافية التابعة واضحة جدا فى زماننا، وليس أقلها فى منطقتنا الكاريبية المتبلدة المحاصرة. واستمع إذن إلى صحفية جامايكية (لا يخطئ المرء فى انحدارها من أصل إفريقى) تكتب فى جريدة «ساندای جلينور» الرفيعة القدر فى ١٦ مايو/آيار عام ٢٠٠٤، وهو عام الذكرى المئوية الثانية لثورة هاييتى. لقد كانت تعلق فى مقالها المعنون «عقلية عبيد صادمة» على الضيافة التى قدمتها حكومة جامايكا للاجئين من هاييتى، الذين لم يتعد عددهم ٦٠٠ لاجئ، والذين كانوا يبحثون عن الملجأ فى الأرض الجامايكية فى أعقاب طرد أريستايد، كما فعل



الاضطرابات فى هاييتى عام ١٧٩١، من طبعة ١٨٦٠ من مطبوع قطع الأخشاب لأدولف شيرز، بعد صورة من عمل إدوارد دارجنت (١٨٢٤ ـ ١٨٩٩).

آخرون غيرهم من قبل (بما فيهم الرئيس الحالى المؤقت لهاييتى. چيرارد لاتورتى عندما هرب من دوڤالييه قبل ذلك). وهى تكتب بنفاد صبر وازدراء:

«إن دعاة الـ PNP بما فيهم أصحاب السعادة من أمثال رئيس وزراء جامايكا (پ.چ.پاترسون) هم فى العادة من أنصار السود (كلماتها بالضبط). إنهم أناس يؤمنون بأن أى ثمن مهما كان عاليا يمكن دفعه من أجل العرق العنصرى، وهم لا يتعبون أبدا من إبراز ذلك. وبعملهم هذا هم يكشفون عن إعجاب يضنون به على الرجل الأبيض، والذى يسمم عملهم السياسى. فإذا كان صاحب السعادة سيأخذ عددا غير محدود من اللاجئين الهايتيين، فهو سيفضح چورچ دبليو بوش رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذى رفض استضافتهم، محافظة على المصلحة الذاتية القومية (كما كانت تستهزئ بديسالين الأمى الذى عين نفسه إمبراطورا: وهو لقب كانت بلاشك سترى أنه يليق أكبر بنابليون بونابارت الذى على أية حال قد توج نفسه بنفس الطريقة). إن السيد باترسون يأمل بأن يؤثر على الأمم المتحدة. إن الأمر بهذه البساطة. وهو يكشف عن عقلية عبيد صادمة، سواء أعجبه ذلك أو لم يعجبه. إن أناسا مثل صاحب السعادة من الضرورى تجاهلهم. إنهم

(الهايتيين) لا يستطيعون تقديم دجاجة واحدة للجامايكيين».

ثم فى انفجار ضد الجهود الجريئة للتكامل بين شعوب المنطقة تعلن:

«بعد أن أعطوا مصارفنا/بنوكنا لأهل ترينيداد، وشركاتنا للتأمين لشعب باربادوس، فهم يعطون الآن مساكننا للهايتيين. وكل ذلك على أمل ذكر اسمنا فى مجلة دورية مغمورة عبر البحار».

يكفى ما قيل حول هذه الصدمات الثقافية التابعة، أو هل يجب على أن أتكلم على الرغم من ذلك، عن غطرسة ووقاحة الثورة الهايتية التى قدمت ضيافتها عند ولادة هاييتى إلى الجميع، بما فيهم آباء وأجداد هذه الصحفية ذاتها، الذين عانوا من العبودية، ومن خلالها من التمييز العنصرى. إلا أنى أؤكد أن المنطقة الكاريبية الحرة المستقلة تصورت نفسها كمكان لن يكون فيه أبدا، وفى أى وقت عبد، أى مملوك لآخر، أو محروم من حق الإنسانية الطبيعى، بل بدلا من ذلك يكون صاحب حق فى كل ما هو مقدر أن ينبعث من مثل هذه الإنسانية الطبيعية ـ المساواة والحرية.

وبالنسبة للعبد المقدام، فلكى يكون حرا عليه أن يكون متساويا (ندا)؛ ولا يوجد أى شك هنا فى أى خلاف بين المساواة والحرية. وتقول الأسطورة فى جامايكا حتى يومنا هذا إنه عندما قام بعض العبيد الجامايكيين متبعين طريق الجد بوكمان ـ هذا العبد الجامايكى الذى ينسب له فضل إشعال أول ثورة فى عام ١٧٩١ ـ بالهروب بسفينة إلى هاييتى، فإن ملاك السفينة فى جامايكا طالبوا بإعادة كل من شكلى الملكية، أى العبيد والسفينة. ويقال إن سلطات هاييتى أجابت بأن ملاك السفينة يستطيعون أن يستردوها. ولكن ليس العبيد، الذى أصبحوا الآن «مواطنين» فى هاييتى، مما يعنى أنهم تحرروا من العبودية، وأعيدت لهم إنسانيتهم كما يجب، ومعها شعورهم بحقوقهم وواجباتهم كجزء من مجتمع يعيش فيه آدميون، وليس عبيدا.

مثل هذه الأساطير هى التى كونت تفكير ومشاعر العديد من الجامايكيين مثلى، الذين كان من حسن حظهم أن يتعرفوا على هاييتى وتحولها من سانت دومينجو المالكة للعبيد إلى هايتى الشجاعة، وبالتالى الحرة والمستقلة، حتى لو كانت فقيرة. والجامايكيون مثلى، بمجرد أن تعرفنا على قصص البطولة فى تلك الحادثة التاريخية المجيدة لشعب من أصل إفريقى فى الأمريكتين، علمنا أيضا أن الولايات المتحدة المستقلة حديثا قد أنكرت حق هاييتى المستقلة حديثا فى الاعتراف بها، والذى حصلت عليه وتستحقه على المسرح الدبلوماسى الدولى. وما السبب؟. إن الولايات المتحدة، على الرغم من كل ما أعلنته عن الحقوق غير القابلة للتنازل عنها، وعن حق المساواة لجميع الناس منذ ولادتهم، كانت مجتمعا يملك عبيدا. ولم تستطع أن تسامح أولئك العبيد المعتدين بذاتهم فى سانت دومينيجو على نجاحهم المتغطرس، أو أن تتحمل منحهم شرف الاعتراف بهم، خوفا من إرسال الرسالة الخطأ بواسطة الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، والكثيرين منهم من ملاك العبيد، الذين يعتبرون حقوق الملكية

مقدسة. وكان العبيد فى كل الأحوال من «الممتلكات». إن أمة يتحكم فيها فكر الملكية السابقة للسود للسادة البيض لا تستطيع لذلك أن تكون جزءا من رؤية دولة حديثة متحضرة. وهذه بالتأكيد ليست رؤية الأمريكيين ولا الفرنسيين فى ظل حكم نابليون بونابارت، التى أجبرت على الأقل جهوده لإعادة العبودية فى سانت دومينجو، والتى من الواضح أنها كانت تخدم مصالح فرنسا القومية، لوڤيرتير المحب لفرنسا الذى كان يرى هاييتى متحررة من العبيد، وفى نفس الوقت فى تحالف مع فرنسا، على الاستسلام لما أدركه الإمبراطور ديسالين من أن الضرورة القومية بدون العودة للعبودية هى الطريق الوحيد للخروج من المعضلة التى كانت تؤرق القادة الأوائل لثورة هاييتى. وكان لابد من التضييق ـ ليس على فرنسا فحسب، بل على بريطانيا أيضا، وهما قوتان استعماريتان كبيرتان، إذا كان لأمة هاييتى الجديدة أن تصبح واقعا.

إن التاريخ كما نعلم فى أفضل تراث فكرى لا يعيد نفسه ـ ليس بالضبط على أية حال ـ فالعامل الزمنى المكانى فى حد ذاته هو عائق كبير، لكن المعضلات التى أزعجت أولئك الثوريين الهايتيين الأوائل ـ أولئك اليعقوبيين السود ـ يبدو أنها قد عادت إلينا مرة أخرى. إن تحديات شبيهة تواجه قادتنا المعاصرين، تدعوهم للتصرف بجرأة، وتحرير أنفسهم من الحبل السرى الاستعمارى، وإن كان بمهارة مولدة خبيرة. إنهم يحتاجون لجمع شجاعتهم لابتكار أطر مؤسسية مناسبة لسياستهم، مثل «اقتصاد السوق الواحد الكاريبى» (CSME)، «ومحكمة العدل الكاريبية» CCJ، والتى ستحقق الآليات التأسيسية المقصود بها التأثير على عملية التخلص من الاستعمار التى وجدت شكلها الإيجابى الأول فى الاستقلال منذ أن تحررت ترينيداد، وتوباجو، وجامايكا فى عام ١٩٦٢. ولا يوجد قائد سياسى معاصر من الهند الغربية يرى «اليعقوبيين السود» للمؤلف س. ل. ر. جيمس يستطيع عدم التعاطف مع الكرب والألم الذي يشعر بهما أحد اتباع لوڤرتير عند إجباره على مواجهة اتخاذ ذلك النوع من القرارات التى لا تعرض قلب وجوده الثورى للخطر ـ أى الحرية من العبودية العنصرية ـ كما تبدو الآن الحرية من التبعية الاستعمارية بالنسبة لقادتنا المحاصرين، الذين يرأسون اقتصادات ضعيفة، وهشة، وفقيرة، ومحملة بالديون. من هذا الذى يستطيع القول إن هايتى فى عام ١٨٠٤ وبعد ذلك مباشرة ـ وحتى الآن ـ لا تقدم لنا درسا نتعلم منه؟ إن الصدمات الثقافية التابعة يجب أن تجعلنا نأخذ حذرنا. إن معرفة مثل هذا الماضى أمر ضرورى لإزاحة الجهل، وكسر الصمت الذى هو فى حد ذاته محرك للجهل.

إن التصوير والتحليل الرائع الذى قدمه جيمس لمثل هذه الهواجس فى كل من روايته ويومياته التاريخية الكلاسيكية، قد ساعد العديد منا على فهم أفضل للمأساة، والاحتمالات، والطموحات، والتحديات الشاقة المستمرة لسلالة هؤلاء الملايين الذين أُبعدوا بالقوة عن أرض أجدادهم على مدى ثلاثة قرون إلى أراض أخرى عبر الأطلسى. ومع ذلك هناك الكثيرون الذين فاتهم إدراك دلالة أول جهد

نـاجـح حقـا لاقتـلاع البراعم المبكرة من وعى الحضارة الغربية لبذور التحكم، فى العمل وفى النفس الإنسانية، وفيما يسمى الأجناس الأدنى، وهـى بـذور بـذرت فـى أرض الـعـبـودية، وتم تسميدها بشكل من أشكال الإرهاب النفسى. إن ما بدأه شعب هاييتى منذ مائتى عام فى عام ١٨٠٤ قدم مصدرا للطاقة، ويظل ميراثا لكل من تبعهم فى كفاحهم لكسر ما يعتبر صمتا مفروضا، حتى لو كان برفع صوتهم فقط كما فعل ماركوس جارفى فى عام ١٩٣٧، الذى زوّد أشباه الشاب بوب مارلى بذلك البيت الشعرى المكون من مقطعين، والذى أصبح الآن تاريخيا، حول التحرر من العبودية الفكرية مع التذكير والتأكيد على أنه لا أحد سوانا نحن أنفسنا يمكن له أن يحرر العقل. إن مثل هذه النصائح هى أشكال من العمل.

وهذا على الرغم من حقيقة أن هاييتى فيما بعد العبودية وما بعد الاستقلال كانت فى الواقع محرومة من كل الأدوات الاقتصادية لبناء أمة وللتطور الحديث - وهذا يرجع إلى مقاومة وإحباط كل مثل هذه الجهود، ليس بواسطة القوى الخارجية فحسب، بل أيضا بواسطة التحالفات الداخلية مع تلك العصابة من العتقاء القدامى المعروفين فى الكاريبى المتحدثين بالإنجليزية باسم «الملونين الأحرار»، والذين تستمر بعض سلالتهم من «ذوى اللون الأسمر» فى أن يكونوا حلفاء، وعلى أتم استعداد، وطائعين لمثل هذه القوى الخارجية، وأيضا فى الحقيقة بعض الوافدين السود الجدد على الثروة والجاه. وسيضيف العلماء إلى ذلك تأثير تناقض يخل بالوظائف فى الكثير من القيادات المبكرة يتردد صداه فى التناقض النفسى الذى يستمر بإلحاح فى قيادة الكاريبى المعاصرة، والذى تتحداه ضغوط التصحيح التى تواجه العديدين الذين يجب أن يستجيبوا للواقع الصعب للتغيير فى القرن الواحد والعشرين. ومع ذلكِ استطاعت جموع السكان فى هاييتى التى تحررت حديثا، والمثقلة بالديون، إيجاد طرق لتدعيم حصانتها ضد قمع العبودية العنصرية، ومن الناحية العقلية، من خلال التراث غير الملموس لهويتها المهجنة التى تظهر فى ظواهر ثقافية، مثل الدين، وفى لغة كويول Kweyol، (رصيد ثرى من التعبيرات الفلسفية، وفطنة وحكمة الشعب الهاييتى الأصليتين)، وفى الرقص والموسيقى. وهذه الظواهر التى تُرى باعتبارها توابع ثقافية للصدمات بوساطة أناس يقيّمون قواعد التمثيل التى وضعها الأوربيون على أنها تتفوق على كل ما عداها، كان العديد منها وسائل للبقاء، وما أبعد من ذلك بالنسبة لسلالة العبيد.

وبفضل جامعة وست إنديز، تعرض جيل بأكمله من الخريجين للكثير من هذه الظواهر. فقد قدم ديريك والكوت مسرحيته «هنرى كريستوف» للعديدين فى جامعة وست أنديز مونا كامباس، بجامايكا. وقرع الطبول «الكونجو» الذى أصبح منتشرا الآن فى مدارس جامايكا فيما بين الأولاد (أحد العوامل المهمة هو عدم الاتصال المتنامى بين المدرسة والشباب من الذكور) إنما هو مستلهم من السياق الهاييتى، ويرجع تاريخه إلى خمسينيات القرن العشرين عندما ظهر الطبال الهاييتى العظيم تبيرورو فى احتفالات المئوية الثالثة فى عام

١٩٥٥، وتبعه إدنر كيريزم، الذى جاء إلى مونا كامباس مع لاڤينيا ويليامز باعتباره عازفا على آلات النقر خلال الستينيات ليقود المدرسة الصيفية فى الرقص، ثم تلاه فيما بعد ليون ديتين الذى فعل نفس الشىء. ومعهم جاءت الموسيقى الهايتية، وطقوس الودونية (دين زنجي منتشر بين زنوج هاييتى يقوم على أساس السحر والشعوذة) التى ترجمت لفنون مؤداة. ثم كانت هناك زيارات من فنانين جامايكيين إلى هاييتى، وهايتيين إلى جامايكا، واهتمام متزايد بالذاكرة الإفريقية، والتأثير الثقافى للوجود الإفريقى على الحياة الجامايكية، ثم على الحياة الأوسع للكاريبى. وتستمر العلاقة. وفى عام ٢٠٠٣، قام مصمم الرقصات الهاييتى الشاب جان جاى سانتوس مع شركة مسرح الرقص القومى الجامايكية، بإعداد عمل مسرحى مؤثر راقص بعنوان «تعويذة» على موسيقى تاوتو بيسانتى ومارتا جين ـ كلود زاو الهاييتيين، وهناك تبادل ثقافى فى شكل نظام معتقدات «راستافاريان»، والتعبير الفنى الذى تغلغل فى الموسيقى الشعبية الهايتية المعاصرة. وقد فعلت مجموعة بوكمان ايبريونز الموسيقية الجزء الأكبر من ارتباطها بجامايكا فى موسيقى الاحتجاج التى كانت تؤديها. وقد ساهم كل ذلك فى كسر الصمت.

مثل هذه الأصداء الثقافية ـ المفعمة بالأمل، وحتى الابتهاج، باستمرار روح الأجداد ـ واجهها الواقع المعاصر الذى أدى لتعكير الوعد بالاحتفال والذكرى فى العام المائتين للثورة. إن برتراند أريستايد، الرئيس الهاييتى الثالث والثلاثين، الذى نُفى مهزوما، هو جزء من ذلك التراث الذى يُقال إنه مصيرنا من جانب أولئك الذين يستمرون فى اصطناع الانفصال بين العتقاء المحررين، الذين أصبحوا آدميين من ناحية، وبين الآدميين كمنتجين اقتصاديين من الناحية الأخرى، وإن كانوا غير مقيدين بالإنتاج المادى، سواء كانوا شتات العبيد الإفريقيين السابقين، أو شتات عمال العقود من الهند الشرقية. إن مثل هذا العمل المستغل فى ظل العقود أو المخاطر المزدوجة للاستغلال والعبودية فى ظل نظام العبودية قد ترك آثار الجراح فى كل المنطقة من هايتى إلى جويانا. «إن الكفاح مستمر» بالفعل، ولذلك علينا الاستمرار فى الكفاح ضد توابع الصدمات التى تجد تعبيرها فى التخلف عن التنمية، وفى استغلال العمال، وفى الفساد السياسى، وفى صنع بؤس الطبقات العاملة، والجهل، والصمت المضنى، وظاهرة العنصرية الطبقية التى تهمش جموع الشعب الذين يُطلب فى كثير من الأحيان من أغلبيتهم العددية أن تعتبر كأقليات ثقافية حتى فى وسط الادعاء «بالديمقراطية» بأسلوب الأغلبية.

وكما يؤكد أنتونى بوج (وأنا أشاركه الرأى) «الحرية فى التقاليد الكاريبية تحاول ألا تتصارع مع السلطة السياسية كشكل خاص من السيطرة. إن الحرية الكاريبية تهتم بالقيم، والكرامة، والاحترام بطرق لا تلتفت إليها قصص الحرية الأخرى». إننا لا نجرؤ على التخلى عن الأمل على الرغم من التاريخ الملىء بالاستهجان والوعود المحبطة. إن الأكاديمى الأمريكى سيدنى مينتز يتحدث

بشكل ملائم عن مأزق هاييتى فى كتابه التحولات الكاريبية «كاريبيان ترانسفورماشنز» (مينتز، ١٩٨٩ : ٢٦٣)، وكما اقتبسه سيبيل فيشر (فيشر، ٢٠٠٤، ٢٦٢):

«لقد انطلقت هاييتى نحو استقلالها بما يمكن أن يكون تكهنا لما قد يحدث على نحو أكثر تشاؤما فى تاريخ العالم الحديث: منهوبة، ومخربة، ومكروهة، وتخشاها القوى التى تملك العبيد (بما فيها الولايات المتحدة)، ومقيدة بالتعويضات الاقتصادية لسادتها الاستعماريين السابقين، ومفتقدة كلية تقريبا للمهارات، والاتصالات الدبلوماسية، والوسائل الضرورية لبناء أمة حديثة. بالتأكيد هى أعجوبة أن تكون الجمهورية الثانية فى نصف الكرة الأرضية»، وينهي مينتز كلامه بقوله: «إنها لم تتصرف بشكل سيئ، بل إنها لم تتصرف إطلاقا».

إن هذه بالفعل فكرة تستحق التأمل ـ حقيقة أن هايتى لم تتصرف على الإطلاق فحسب، بل أيضا باعتقاد حقيقى أنها بالفكر والخيال، مثل منطقة الكاريبى، وبقية الشتات الإفريقى فى الأمريكيتين التى تشترك معه فى كرم المحتد التاريخى، معُدة لأن يتصرف سكانها بشكل أصيل أفضل، دون أن يتخلوا أبدا عن صراع أجدادهم ضد حرمانهم من الإنسانية ـ وهى فكرة بذيئة تستمر بإصرار فى مضايقة الكثيرين جدا باسم العولمة، حتى كما كانت تفعل فى ظل تسميات أخرى فى أزمنة ما قبل وما بعد التنوير، عندما كان الظلام يهدد أرواح أجدادهم الخاضعين ذاتها، ولكن التى لم تكن بأية حال ضعيفة أو حقيرة.

الحرية كتحرير الذات

أنا أجرؤ الآن على تكرار السؤال الذى سبق أن سألته فى يناير/ كانون الثانى عام ٢٠٠٤، فى بداية عام الاحتفال بالذكرى: ألم يقم ذلك الحدث العظيم بتذكيرنا، كما جاء فى كلمات باتريك شاموازو، بأن «الحرية لا تُمنح، يجب ألا تمنح طالما أن الحرية التى تمنح لا تحرر الروح»؟. إننا نحتفل بإمكانية قدرتنا على تحرير أنفسنا. كما بيّن الهايتيون بوضوح فى عام ١٨٠٤. إن الطريق للأمام يتعلق بالتعرف على الطرق والوسائل التى تجعلنا لا نبدد تلك القدرة أبدا، بل نتقدم نحو العمل على أساس تعريف مفيد للذات وللمجتمع. هذا هو الطريق للتمكين من أجل عمل إيجابى، وإنجاز كلى فى إنشاء مؤسسات النمو، وأدوات التنمية، أيًا كانت الجهود خارج وداخل الأسوار لمنعنا من تحقيق ما شرعنا فى عمله.

وتكون القدرة على تحرير الذات متواصلة من خلال تصميم الأدوات التى تعرفنا وتدخلنا فى تاريخنا، وتهزم الجهل الذى يمكن أن يهدد الشعب بتكرار أسوأ الجوانب فى تاريخهم، وتكسر (أو تشغل) الصمت الذى يلعب فى حد ذاته دور الخادم للجهل، ويفرض شلل الإرادة على الجهال.

يعلن جوردون س. وود: «إن واحدا من أعظم إنجازات العلم التاريخي فى نصف القرن الماضى كان هو الاسترجاع أو الاستعادة الخيالية على الأقل لبعض واقع العبودية فى العالم الجديد» (وود، ٢٠٠٤: ٤٣). ويُعرف الآن المزيد عن حجم الشتات الإفريقى وطبيعة العبودية فى الأمريكيتين. إننا نستطيع الآن تقدير عدد العبيد الذين جُلبوا من غرب إفريقيا إلى الأمريكيتين على مدى أربعة قرون بأنه كان ما يقرب من ١١ أو ١٢ مليونا أودعوا على طول ساحل أمريكا الشرقى من كندا الفرنسية إلى البرازيل البرتغال، بينما كانت جزر الكاريبى هى منطقة التجميع الكبرى.

إن لدينا الآن، بفضل مجموعة بيانات دى بوا فى معهد دى بوا فى هارفارد، معلومات دقيقة نسبيا حول اقتفاء أثر تجارة العبيد، على سبيل المثال، ٢٧٢٣٣ رحلة للعبيد عبر الأطلسى، والتى تلقى ضوءا جديدا على مسائل قديمة خاصة بالوفيات فى الممر الأوسط، ومدى تكرار الثورات على السفن، والأصول الإثنية للإفريقيين المستعبدين. ويجب أن نعبر عن امتناننا لمطبعة جامعة كمبريدج لأنها أتاحت لنا كل هذه المعلومات فى مصدر واحد، هو قرص مدمج (سى دى روم) قامت بنشره. وكان المجلد ٥٨، رقم ١ (يناير/ كانون الثانى عام ٢٠٠١) من مجلة «وليم ومارى الربع سنوية» مكرسا كلية لمناقشة «مجموعة بيانات» دى بوا ومضامينها بالنسبة لفهمنا للعبودية فى العالم الجديد، طبقا لجوردون وود.

ومع ذلك، فإن ظواهر الجهل والصمت تستمر فى إزعاج أولئك الذين يعيشون ويوجدون على طول «طريق العبيد». ولندع جوردون وود فى تقديمه لنظرة ثاقبة حول مذكرات نشرت لاثنين من أصحاب المزارع - هما: توماس ثيسلوود من جامايكا، ولاندون كارتر من فيرجينيا - يتحدث بنفسه:

> «الكثير من هذه المعلومات الجديدة (لعقود قادمة) ستكون بالضرورة إحصائية. ولكن مع أهمية الأعداد، فهى لا تخبرنا بالكثير الذى نريد أن نعرفه حول العبودية - الحياة اليومية للعبيد فى العالم الجديد، على سبيل المثال، وعلاقتهم بعبيد آخرين وبأسيادهم».

هذه هى طبيعة المهمة التى تنتظر العلماء والآخرين الذين يواجههم تحدى ملء فراغ الصمت، وهزيمة الجهل، وبناء المعرفة حول بُعد مازال كبيرا، وفترة من تاريخ الإنسانية الحديث، على الأقل بالنسبة لملايين من الأرواح فى الشتات الإفريقى.

References

BOGUES, N. 2004. Haitian revolution and the making of freedom in modernity. Available from: http://www.polisci.upenn.edu/programs/theory/bogues.pdf

CHAMOISEAU, P. 1998. *Texaco*. New York: Random House Vintage Reprint Edition.

ELLIS, D. 1999. *The trans-Atlantic slave trade: a database in CD-ROM*. Cambridge University Press.

FISCHER, S. 2004. *Modernity disavowed. Haiti and the cultures of slavery in the age of revolution*. Kingston: University of the West Indies.

MINTZ, S. 1989. *Caribbean transformations*. New York: Columbia University Press.

RITCH, D. 2004. "A shocking slave mentality." Kingston. *Sunday Gleaner* 16 May. Available from: http://www.gleaner.com/gleaner/20040516/cleasure/cleasure 3.html

WOOD, G. S. 2004. "What slavery was really like", *New York Review of Books*, 51 (18), 43 (18 November).

ثورة هايتى والكفاح ضد العبودية:
تحديات للمعرفة، والجهل، والصمت

ركس نتلفورد

أفضل طريقة «لتصفية الحسابات» فيما يتعلق بتجارة العبيد والعبودية هى «استخدام» حقائق التاريخ من خلال البحث، والتحليل، والتفسير باستهداف تجارب معينة فى كل من الإدارة الفعلية والتشغيل لهذه التجارة ونتائجها على الشتات الإفريقى. ويتناول هذا المقال بالتحديد حالة هايتى (سانت دومينج) بالنسبة لكل من تحريرها وتأثير ذلك على بقية العالم الذى يحتفظ بعبيد، وكذا لما تبع التحرير والصدمات التى تلته، حتى الأزمنة الحديثة. وعلى الرغم من التقدم الكبير فى الأبحاث التاريخية، فإنه مازال على العلماء والآخرين كسر الصمت، وهزيمة الجهل، وبناء المعرفة حول بُعد مازال كبيرا، وفترة من تاريخ الإنسانية الحديث، على الأقل بالنسبة لملايين الأفراد فى الشتات الإفريقى.